

موقف مصر إزاء بعض مشاكل شبه الجزيرة العربية

في الستينات من القرن التاسع عشر

أُتسم القرن التاسع عشر بالثورات العديدة التي قامت في أجزاء متفرقة من الإمبراطورية العثمانية ضد الحكم العثماني والسيطرة العثمانية نتيجة لفساد النظم العثمانية ولضعف سلطة الباب العالي . ومن هذه الثورات ثورة العسير التي نشأت لاضطراب الأمور في اليمن والحجاز . وقد استعان السلطان العثماني بوالى مصر في إخماد تلك الثورة ، ووجدت تلك الدعوة ترحيبا كبيرا من قبل والى مصر إسماعيل أملا في إحياء السياسة العربية التي سارت عليها مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

فاشترك مصر في القضاء على تلك الثورة يعتبر من وجهة النظر المصرية . تنمة للسياسة العربية التي وضعت أسسها من قبل . ولذا لا يستطيع الباحث أن يتفهم سياسة مصر في النصف الثانى من القرن التاسع عشر إزاء ما يجرى فى شبه الجزيرة العربية من أحداث ما لم يرجع إلى الوراء بضع قرون ليلم إلمامة سريعة بالسياسة التي اتبعتها كل من مصر والدولة العثمانية إزاء تلك المنطقة العربية من العالم .

بدأ اهتمام العثمانيين بالسيطرة على سواحل البحر الأحمر بعد احتلالهم لمصر مباشرة عام ١٥١٧ م . ويرجع هذا الاهتمام - إلى حد كبير - إلى محاولتهم معالجة أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهتها مصر منذ أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر .

كان على الدولة العثمانية إذاً أن تدافع النفوذ البرتغالي المتغلغل في المحيط الهندي والجزء الجنوبي من البحر الأحمر . ووجد العثمانيون أن من واجبه القيام بعمل حاسم لوقف التيار البرتغالي ، لانقاذ العالم الإسلامي من هذا الخطر الصليبي المتعصب ، حماية للقوى الإسلامية في الهند من أن تحطم ، ومحافظة على الولايات العربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر من أن تنتزع السيطرة على التجارة الشرقية من أيديها . هذا فضلا عن الفائدة الكبيرة التي تعود على الدولة العثمانية من القضاء على قوة البرتغاليين ومن بسط سيطرتها على الطريق التجاري القديم ، واستعادة أهميته السابقة كطريق تجاري هام بين الشرق والغرب .

ومن ثم بدأ الأتراك العثمانيون يتطلعون إلى الاستيلاء على السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية ، ووضع أيديهم على المراكز العربية التجارية الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربي مثل هرر وسواكن ومصوع حتى لا يتمكنوا البرتغاليين من توطيد أقدامهم في تلك المناطق .

وكان الحجاز أسبق هذه الأفطار إلى الدخول في حظيرة الدولة العثمانية بعد أن دالت دولة الماليك في مصر . ولم يجد شريف مكة غضاضة في أن يتقدم بفروض الطاعة والولاء للسيد الجديد (السلطان سليم) بمصر ، ليضمن بذلك بقاءه في منصبه ويتمتع بالحماية العثمانية ضد اعتداء البرتغاليين .

وإذا ما اتجهنا إلى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية نجد أمارة اليمن حيث كانت خاضعة لحكم الأئمة الزيديين ، وكان أمراء الماليك في مصر يدعون لأنفسهم شيئا من السيادة على اليمن نظرا لسيطرتهم على إقليم الحجاز . وقد وجد هؤلاء الماليك في الضغط البرتغالي على اليمن فرصة سانحة لتدعيم نفوذهم في تلك البلاد ، فأرسلوا إليها قوة حربية كبيرة بمحجة الدفاع عن كيائها ضد الغزو البرتغالي المتوقع . وظلت تلك القوة الحربية قائمة إلى سقوط دولة الماليك حيث أخرجت منها عنوة . وبذلك أصبحت

الذين مطمعا لقوتين جديدتين هما : قوة العثمانيين وقوة البرتغاليين ، إلى أن تمكن العثمانيون من أن يكون لهم الغلبة في النهاية وأن يسيطروا على اليمن بعد حملات متعددة وتضحيات جسيمة . وبالرغم من ذلك لم يستطع الأتراك العثمانيون البقاء فيه فاضطروا إلى الانسحاب سنة ١٦٣٥ .

أما عن الإمارات العربية الواقعة على الخليج الفارسي فقد خضعت للسيطرة العثمانية ، ولكنها كانت في واقع الأمر سيطرة اسمية ، وظلت السلطة الفعلية في أيدي أمرائها ومشايخها المحليين .

من هذا العرض الموجز لحركة التوسع العثماني في شبه الجزيرة العربية لمواجهة الضغط البرتغالي نجد أن العثمانيين قد اضطروا إلى الاهتمام بالعالم العربي وبالمشاكل العربية ، وأن يكونوا لأنفسهم سياسة عربية خاصة إزاء تلك المناطق .

وباستيلاء العثمانيين على الحجاز اتخذوا من جدة قاعدة لحكم هذا القطر العربي (وأطلقوا عليه اسم ولاية الحبش) ، وأقاموا بها واليا تركيا برتبة الباشوية ويخضع لسلطته شريف مكة . وظلت الصلة التي تربط مصر بالحجاز تتمثل في بعثة الحج المصرية وفي الأموال والغلال التي ترسلها مصر سنويا إلى الأراضي المقدسة . واستمر الحجاز خاضعا لحكم الأتراك العثمانيين إلى أن استولى عليه الوهايون في عام ١٨٠٢ م .

وعندما عجزت الدولة العثمانية عن استرداد الحجاز من أيدي الوهايين ، لجأت إلى محمد علي والي مصر ، للاستعانة به في القضاء على الحركة الوهاية وانتزاع معظم مناطق شبه الجزيرة العربية من أيديهم . واستطاعت مصر بعد جهود كبيرة من السيطرة على الحجاز في عام ١٨١٩ ، ووضع سياسة عربية خاصة بالحكم وإدارة شؤنه . وتهدف تلك السياسة إلى الاستقلال بحكم تلك البلاد وإخضاعها للحكم المصري المباشر بعيدا عن تدخل الدولة العثمانية صاحبة السيادة . وبذلك أصبح لمصر منزلة سامية لدى الشعوب الإسلامية نتيجة لسيطرتها على الحرمين الشريفين .

وقد حاول محمد علي بعد أن استتب له الأمر في الجزيرة العربية أن يتجه بفتوحاته شرقاً نحو الخليج الفارسي وجنوباً صوب اليمن ، ولكن الحكومة الإنجليزية حذّرتَه من المضي في هذا السبيل ، وبادت باحتلال عدن سنة ١٨٣٩ . فلم يجد محمد علي بداً - تحت ضغط الحكومة الإنجليزية - من الانكماش داخل شبه الجزيرة العربية ، إلى أن استطاعت إنجلترا في عام ١٨٤٠ - القضاء على الحكم المصري في شبه الجزيرة العربية وأن تعيد إليها الحكم العثماني مرة ثانية .

وكان لفشل حركة محمد علي في تكوين إمبراطورية عربية والاستقلال عن الباب العالي صداه العميق لدى الحكومة العثمانية التي لم تتردد في استغلال تلك الفرصة في تشديد قبضتها على البلاد العربية الخاضعة لحكمها . فأقامت بالحجاز إلى جوار الوالي العثماني وشريف مكة ، قوة عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثماني في تلك البلاد . ونجح العثمانيون - إلى حد بعيد - في تدعيم سلطانهم على الحجاز نتيجة لانتهاجهم تلك السياسة الجديدة .

وظلت مصر منذ الفترة التي أعقبت عام ١٨٤٠ بعيدة عن مسرح السياسة في الحجاز ، ولا يربطها بهذا القطر الشقيق سوى ما سبق أن أشرنا إليه من إرسال الصدقات والغلال إلى فقراء الحجاز كل عام . واستمر الوضع على هذا النحو إلى عام ١٨٦٣ حيث حدثت بعض الاضطرابات في اليمن والحجاز ضد الحكم التركي ، وتجمعت قبائل العسير تحت راية أميرهم محمد بن عائض محاولة الاستيلاء على منطقة تهامة وتهديد الأراضي الحجازية . وقد شجع النجاح الذي أحرزته تلك القبائل على مقاومة السلطات التركية الحاكمة التي أزعجها هذا الانتصار . وتخرج موقف متصرف الحديدة التركي (علي ياور باشا) ، وطلب النجدة من عزت حقي باشا حاكم عام الحجاز . وكان مجيء القوات التركية كافياً لانسحاب القبائل النائرة عن الحديدة واعتصامها في المناطق الجبلية

المجاورة لها والتي تبعد عنها مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة فراسخ .
ولم ينته خطر الثوار بهذا الانسحاب ، إذ ظلوا يسيطرون على بعض
المناطق الحصينة على الساحل والتي مكنتهم من مطاردة السفن التجارية المارة
بمحاذاة ساحل عسير ، والاستيلاء على ما بها من متاجر^(١) . وكان على
السلطات التركية الحاكمة في الحجاز والتي تتمثل في عزت حتى باشا الوالي
العثماني والشريف عبد الله حاكم مكة أن تقضى على تلك الثورة . ولكن
نظرا لعدم تحديد اختصاص كل من الرجلين المسؤولين تحديدا دقيقا ، حاول
كل منهما أن يفتت على سلطة الآخر ، فكثر الاحتكاك بين هاتين
الشخصيتين الكبيرتين . وساعد على ذلك الكراهية المتبادلة بين الطرفين ،
فحزت باشا كان يمثل العصية التركية الحاكمة ، والشريف عبد الله يمثل
العصية العربية المحكومة . وأدى ذلك في النهاية إلى عدم القيام بعمل
إيجابي مشترك لإخماد تلك الفتنة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تخرج موقف شريف مكة عندما
كلفه الباب العالي بالقضاء على ثورة قبائل عسير ، وذلك لأن تلك القبائل
كانت من أهله وعشيرته . بل إنه كان على العكس من ذلك يحرضهم سرا
على الثورة ضد الحكم العثماني .

لهذه الأسباب مجتمعة لم تستطع السلطات التركية الحاكمة في الحجاز
القيام بعمل إيجابي حاسم للقضاء على الثورة . فلجأ الباب العالي إلى والي
مصر (إسماعيل) للاستعانة به في إخضاعها . ولما كان والي مصر يسعى
في ذلك الوقت للحصول على فرمان من الباب العالي يجعل ولاية مصر
وراثية في أكبر أبنائه ، رحب بتلك الدعوة إرضاء للسلطان العثماني من
جهة ، وأملا في إحياء سياسة مصر العربية من جهة ثانية . ومن ثم فقد
أعدت مصر قوة حربية قوامها ٥٤٤٤ جنديا من المشاة والفرسان

T. Dozin; Hist. du Règne du Khedive Ismail. T. I. p.316 (١)

الباشبوزق (غير النظاميين) مزودة بأربعة مدافع جبلية تحت قيادة إسماعيل صادق بك ، وتمثل تلك القوة طليعة القوات المصرية المرسلة للأراضي الحجازية . وأبحرت تلك القوة في ٣ يولية سنة ١٨٦٤ من ميناء السويس على الباخرة الحديدية متجهة إلى جدة .

على هذا النحو كان تدخل مصر في المسائل العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهو يشبه — إلى حد كبير — تدخلها في شئون شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي ، حينما استعان به السلطان العثماني على إخضاع الثورة الوهاية . ولكن وإلى مصر (إسماعيل) لم يكن على استعداد لأن يقدم تضحيات كبيرة كتلك التي قدمها محمد علي ، ثم يكون شأنه في النهاية شأن جده من قبل . ولهذا فقد آثر سياسة اللين ، وعدم المخاطره بالدخول في حرب ضد الثوار بأية حال من الأحوال ، مع بذل كل المساعي الممكنة للوصول إلى تسوية سلمية بين الطرفين المتنازعين .

وقد نجحت مصر في اقناع المسؤولين بحكومة الآستانة بوجهة نظرها في حسم النزاع بالطرق الودية ، وفي الحصول على موافقة الباب العالي على تلك السياسة^(١) ، وخصوصا بعد أن أظهر الثوار ميلا للتفاهم والدخول في طاعة الدولة العثمانية حقنا للدماء وحفظا للأموال والممتلكات^(٢) .

كما حاول الشريف عبدالله من جهة أخرى ، أن يسير على سياسة خاصة تحظى برضاء الطرفين المتنازعين ، وتتلاءم — في نفس الوقت — مع مركزه الدقيق كحاكم عربي . فهو من الناحية الرسمية يعتبر أحداً موظفي الدولة العثمانية ، ويدين بالطاعة والولاء للسلطان . ومن جهة أخرى فهو يرتبط بصلة الدم بقبائل عسير ، فهم أهله وعشيرته . فازاء هذا الموقف الدقيق ،

(١) محفظة سايرة « تركي » من الجتاب العالي إلى صاحب العزة قومندان العساكر المصرية بالحجاز وثيقة بدون رقم في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٢ (أغسطس سنة ١٨٦٥) .
(٢) دفتر ٢١ عابدين من الجتاب العالي إلى كامل بك القيوكتخدا . وثيقة رقم ٣٧ في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٨١ (مايو سنة ١٨٦٥) .

حاول الشريف عبد الله أن يحتفظ بتوازنه بين الطرفين ، وألا يقوم بأى عمل يعرضه لغضب الباب العالي ، أو لاتهامه بالخيانة من قبل أهله وعشيرته^(١) ولهذا السبب أخذ الشريف عبد الله يسوف فى اتخاذ موقف حاسم إزاء الثوار ريثما يتمكن من الوصول إلى اتفاق مرض مع أمير عسير عن طريق المفاوضات .

كان هناك إذن اتفاق فى الهدف بين سياسى كل من والى مصر وشريف مكة بإزاء الثوار ، وأن اختلفت الشخصيتان فى الغاية التى يسعى كل منهما إلى تحقيقها . ف كلا الرجلين كان يعمل جاهدا من جانبه لاطهار تفوق نفوذه وسيطرته على الموقف فى الحجاز . ومن هنا نشأت المنافسة الشديدة بينهما . وبما زاد الثورة اشتعالا إنضمام ثلاث قبائل عربية كبيرة كانت تقيم بالقرب من الطائف إلى الثوار بعد أن خضعت تلك القبائل فترة طويلة من الزمن لحكومة الحجاز ، فأصرت السلطات التركية على عودتها . واتخذت التدابير اللازمة لارجاعها بالقوة إلى حظيرة العثمانيين ، فاجتمع مجلس عسكري ضم اسماعيل صادق بك قائد الحامية المصرية والشريف عبد الله وعزت حقي باشا حاكم عام الحجاز ، وبعض الضباط العظام لبحث الموقف ووضع الخطط الحربية الكفيلة بقمع الفتنة . وقد استقر رأى المجلس العسكري على ابغاد القوات المصرية والعثمانية إلى بلدة قنفذه لاتخاذها مركزا أماميا للعمليات الحربية ضد الثوار^(٢) .

وفى ١٢ أغسطس سنة ١٨٦٤ خرج شريف مكة على رأس ٢٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق والمشاه والمدفعية متخذة الطريق البرى المؤدية إلى قنفذه من ناحية الشرق حيث تتجمع القوات المصرية والعثمانية قبل بدء الهجوم . ولحقت به أيضا قوة حربية أخرى من فرسان الباشبوزق قوامها ١٨٠٠

(١) Aff. Etrang. Corr. polit. S. Marie au Min stre No. 7
Djeddah 12 Oct. 1865.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الإخبار ج ٢ ص ٢٩٤ .

فارس^(١) . بينما سارت قوة حربية ثالثة تحت قيادة أخى شريف مكة لدخول قنفذه من ناحية الغرب . فأصبحت جملة القوات الزاحفة على عسير حوالى ٨٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريفين ؛ منها ٢٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريف عبد الله و ١٨٠٠ مقاتل تحت قيادة أخيه و ٤٢٠٠ جندى مصرى تحت قيادة اسماعيل صادق بك^(٢) .

ويقابل هذا العدد من جانب الثوار عشرون ألف مقاتل مزودون بأربعين مدفعا ، وبعدد كبير من البنادق ، ويعتصمون بمناطق جبلية حصينة . فكانت فرصة الفوز أمام القوات المصرية والعثمانية ضئيلة جدا . وهذا ما دعا شريف مكة إلى التروى وعدم القيام بأية عمليات حربية ضد الثوار ، وخصوصا وأن أهل عسير قد استطاعوا من قبل الاستيلاء على مكة وجده^(٣) .

وإذا كان شريف مكة حريصا على عدم خوض معارك حربية ضد قبائل عسير ، فإن والى مصر كان أشد منه حرصا على ذلك ، ويبدو هذا من الكتاب الذى أرسله إلى اسماعيل صادق بك قائد الحملة المصرية فى أو آخر أغسطس سنة ١٨٦٥ حيث يقول :

« وإذا صدر إليكم تنبيه بالسفر إلى جهة ما أو بالهجوم ، ورأيتم فى ذلك خطرا ، فلا تعيروهم أذنا صاغية وتمهلوا فى تنفيذ طلباتهم . واعلموا جيدا أن أمراء وضباط الجانب الآخر (يقصد العثمانيين) أناس غريبو الأطوار ، لا يهتمون قيد شعرة إذا ما هلكتم جميعكم ، ولا يسألون عنكم . فكونوا

Aff. Etrang. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No. 212 (١)
24 Oct. 1865.

Aff. Etrang. Corr. Polit. S. Marie au Ministre. No. 212 (٢)
Djeddah 24 Oct. 1865.

Aff. Etrang. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No 7 (٣)
Djeddah 21 Oct. 1865.

على حذرٍ وبصيرة واجتنبوا اتلاف الجنود واتعابهم^(١) . .
ويحذره في نهاية الكتاب أيضاً من الدخول في حرب جديّة مع قبائل
عسير ، وأن يتجنب القتال قدر المستطاع .

كما أرسل بكتاب آخر إلى شريف مكة بلفت نظره إلى ضرورة إبعاد
القوات المصرية عن ميناء قنفذه ، لأن جوّه لا يتلاءم مع الحالة الصحيّة
للجنود المصريين ، وطالب بسحبهم في الحال إلى منطقة أخرى أكثر ملاءمة
لطبيعتهم^(٢) .

ويبدو من كل ما تقدم أن والى مصر أراد أن يوفق بين مصلحته وبين
تففيذ بنود فرمان سنة ١٨٤١ الذي نص على اعتبار الجيش المصرى جزءاً
من الجيش العثمانى ، وعلى وجوب مساعدة مصر للدولة العثمانية ، إذا
ما طُلب منها ذلك فى أى وقت من الأوقات . أى أنه أراد أن يحافظ على
نصوص هذا فرمان من ناحية الشكل ، لا من ناحية الجوهر . ولذا حرصت
مصر على مساعدة الدولة العثمانية فى مختلف المناسبات دون أن تكبد نفسها
خسائر كبيرة ، طالما كان فى مقدورها أمير تجنبها وتلافها .

ولما كان شريف مكة — كما سبق أن ذكرت — قد اتخذ من سياسة
التسويق والمماطلة هدفاً يسعى لتحقيقه ، حتى لا يدخل فى قتال مع الثوار
فقد احتج بقلة عدده مالى من الجنود . وطلب من والى مصر تزويده بأورطتين
سودانيتين علاوة على مالى من جنود . فرفض والى مصر إجابة هذا
الطلب لأنه لم يشأ أن يذهب فى مساعدته للباب العالى فى مسألة عسير إلى أبعد
من هذا الحد . كما أنه كان يخشى على الحالة فى السودان جزاء سحب هاتين
الأورطتين ، نظراً لقلة مالى من القوات المصرية . ولذا يشير على قائد

(٤) محفظة ساهرة . من الجناح العالى إلى إسماعيل صادق ، وثيقة بدون رقم ٦ ربيع آخر
سنة ١٢٨٢ (أواخر أغسطس سنة ١٨٦٥) .

(٥) دفتر ٢٢ عابدين من الجناح العالى إلى سيادة الشريف أمير مكة المكرمة . وثيقة
رقم ٨٦ فى ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٨٢ (سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

قواته بالحجاز بتجاهل طلب شريف مكة ، وبأن ينفذ التعليمات السرية حرقاً وبكامل الدقة والعناية ، وألا يهتم بتعليمات الباب العالي إذا ما تعارضت مع تلك التعليمات^(١) .

وفي ١٤ ربيع ثانى سنة ١٢٨٢ (سبتمبر ١٨٦٥) أرسل والى مصر إلى محمد بن عائض أمير عسير كتاباً^(٢) يوضح له فيه ما تأمر به تعاليم الدين الإسلامى الحنيف من إطاعة ولى الأمر ، ويعدده - فى حالة استجابته لنصحه - بأن يسعى لدى الباب العالي للحصول على عفوه وموافقته على تعيينه أميراً على عسير ، بعد أن يتنازل عن الأراضى والقبائل التى ضمها إليه . وفى ختام كتابه هذا يحذره من عاقبة تماديه فى العصيان بقوله :

« وإذا لم تقبلوا النصيحة الخيرية فى الدين ... فتكونون السبب فى سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة إلى تلك البقاع ، وخراب تلك الديار وسفك الدماء ... فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة^(٣) . »
وقد أظهر أمير عسير بعد أن تلقى هذا الخطاب ميلاً إلى السلم والرجوع إلى حظيرة الباب العالي .

وعندما وجد والى مصر أن دعوتَه إلى السلم وجدت قبولا لدى أمير عسير ، بعث إليه بكتاب يبشره بقرب صدور فرمان سلطانى بمنحه رتبة أمير الأمراء والباشوية كما وعده من قبل^(٤) .

ويقابل هذا السعى من جانب والى مصر مسعى آخر من قبل شريف مكة الذى كان يحاول التقليل من شأن الدور الذى قامت به مصر ، مظهراً للدولة

(١) محفظة سايرة من الجناوب العالي إلى إسمايل صادق بك . وثيقة رقم ٩٣ فى ١٣ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ (أوائل سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٢) و (٣) دفتر ٢٢ صادر عابدين من لدن الجناوب الأعظم إلى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة رقم ٩٠ من ٢٥ فى ١٤ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ (سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٤) دفتر ٢٢ عابدين من الجناوب العالي إلى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ .

العثمانية مدى ما يتمتع به من نفوذ روحى كبير وما له من سلطة قوية مكنته من حل مسألة عسير دون حاجة إلى تدخل عسكرى ، ليرتفع بذلك شأنه لدى الباب العالى . ولذا حفلت تقاريره التى كان يرسلها تباعا إلى الاستانة بالأمل القوى فى أن تنتهى تلك المشكلة بما يتفق ورغبات الباب العالى بفضل ما يبذله من جهود^(١) .

وقد رأت الحكومة العثمانية — بناء على تلك التقارير — إيفاد الأمير لواء جرى باشا (أحد أعضاء لجنة الشورى العسكرية) إلى مكة لتبادل الرأى مع الشريف عبد الله بشأن ما يجب عليه اتخاذه من تدابير^(٢) . وقد أساء هذا التصرف من قبل الحكومة العثمانية إلى والى مصر ، وخشى أن يخرج الأمر من يده ، وأن يتمكن شريف مكة بدبلوماسية من حل النزاع وبذلك يتفوق نفوذه على نفوذ والى مصر فى الحجاز . ولذا يضحج والى مصر بالشكوى لدى السلطان العثمانى ، موضحا له بأن أفضل حل لتلك المشكلة من غير سفك دماء أو اضاءة الكثير من الأموال ، أن يُترك له وحده أمر التفاوض مع أمير عسير . ويعبر والى مصر اسماعيل عن المرارة التى يشعر بها نتيجة لتصرفات شريف مكة بقوله :

« ولكن ما الحيلة وشريف مكة — مع الأسف — لا يرى هذا الرأى ، ولا يجبذ هذه الفكرة ، وإنما يبعث على التوالى بتلك التقارير المشحونة بالمعسول من الكلام والأمانى ، أملأ فى نوال المزيد من الاحترام والاكرام وكلما وجد هناك (أى فى الاستانة) من يُصغى لقوله ، أمعن فى خطته وأساليبه ، الأمر الذى لا يستطيع معه أن يكتم امتعاضه منه ولا يستطيع كذلك أن ينسب خطة سيادته إلى غير الاغراض الشخصية^(٣) » .

(١) دفتر ٢٢ صادر عابدين من الجناح العالى إلى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ .

(٢) دفتر ٢٢ صادر من الجناح العالى إلى كامل باشا . وثيقة رقم ١٢٨ فى ٥ جاد أول سنة ١٢٨٢ (أواخر سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) المصدر السابق .

ويلفت والى مصر نظر الحكومة العثمانية إلى الاختلاف الواضح بين أعمال شريف مكة وبين آرائه وتذبذبه بين الإقدام والإحجام ، ويقرر بأن مثل هذا الرجل لا يصح لمعالجة أمثال تلك الأمور الخطيرة (١) .

وفى نفس الوقت أرسل والى مصر مندوبا من قبله ويدعى يمينى أحمد أفندى إلى شبه جزيرة العرب لمقابلة أمير عسير والتفاوض معه سرّاً بشأن الوصول إلى اتفاق فيما بينهما ، على ألا يعلن عن نتيجة تلك المفاوضات إلا إذا أسفرت عن نجاحها (٢) ، حتى لا يضعف مركزه أمام شريف مكة وأمام الباب العالى .

ورغم جنوح أمير عسير للسلم ، فإن الباب العالى لم يسمح للقوات المصرية بالانسحاب من الأراضى الحجازية ، بل أصدر أمره بأن تظل تلك القوات مرابطة فى قنفذة ريثما يحسم الأمر بصفة نهائية ، فر بما تتطور الأمور فجأة . ولا مناص إذن من بقاء القوات المصرية فترة أخرى من الزمن ، حيث لم يجد والى مصر بدا من الرضوخ لهذا الأمر (٣) .

وقد خشى والى مصر من قيام اضطرابات أخرى فى قلب شبه الجزيرة العربية - وخصوصاً وأن الأحوال فى اليمن كانت غير مستقرة ، وكانت العلاقة بينها وبين الدولة العثمانية سيئة - مما قد يتعذر معه سحب القوات المصرية من الأراضى الحجازية . فاتهز الوالى فرصة تجمع تلك القوات فى ميناء جدة ، وأخذ يُلحّ على الباب العالى فى سحب قواته بعد أن استقرت الأمور محتجاً بأن بقاءها خارج مصر فى مهمة حرية يُحمل الميزانية المصرية أموالاً إضافية وخصوصاً وأن جملة تكاليف الحملة قد بلغت حتى ذلك

(١) المصدر السابق .

(٢) محفظة سائرة بدون رقم . من الجنب العالى إلى إسماعيل صادق بك . وثيقة بدون رقم فى ١٩ جاد أول سنة ١٢٨٢ (أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) دفتر ٢٢ عابدين من الجنب العالى إلى الباب العالى . وثيقة رقم ١٤٦ فى ١٩ جاد أول سنة ١٢٨٢ (أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

الوقت (أكتوبر سنة ١٨٦٥) أربعين ألف كيسه (٢٠٠.٠٠٠ جنيه^(١)).
وفي ٧ شعبان سنة ١٢٨٢ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٥) تلقى قائد
القوات المصرية بالحجاز الأوامر من القاهرة بأن يشرع فوراً في ترحيل
الجنود النظامية إلى مصر أولاً ، ثم تتلوها القوات غير النظامية^(٢) . وقد
تم انسحاب القوات المصرية من الحجاز في يناير عام ١٨٦٦ بعد أن أمضت
حزناً إلى السنتين دون حرب أو قتال .

وتقديراً لما قام به وإلى مصر من خدمات لفض هذا النزاع ، أرسل
الباب العالي جميل باشا (أحد معاونين العسكريين في الديوان السلطاني) إلى
مصر يحمل خطاً شريفاً يعبر فيه السلطان العثماني عن شكره لإسماعيل على
ما بذله من مساعٍ موفقة لحسم مشكلة عسير دون إراقة دماء^(٣) . كما تبودلت
التهاني أيضاً بين الباب العالي وشريف مكة^(٤) .

وفي ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٢ (يناير سنة ١٨٦٦) أرسل وإلى مصر إسماعيل
بنىء محمد بن عائض أمير عسير فأوفد من قبله إلى أمير عسير من يدعى أحمد
أفندي اليمنى ليلغته تهانيه ويبسط له تفاصيل السياسة المشتركة بينهما في المستقبل^(٥)
ولم تشر الوثائق إلى كنه تلك السياسة التي اعتزم وإلى مصر تنفيذها
بالاشتراك مع أمير عسير . كما أنى لم أعثر على وثائق لتلك الفترة تنير لي
الطريق وتوضح السياسة العربية التي اتتوت مصر السير عليها في المستقبل .
ولكن الأحداث التاريخية التي مرت بمصر في السنوات القلائل التي تلت

(١) دفتر ٢٢ عابدين من الجناح العالي إلى كامل بك القيوكتخدا . وثيقة رقم ١٩٥ في
٨٠ جماد ثان سنة ١٢٨٢ . (١ أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

(٢) عطفة سائرة من الجناح العالي إلى إسماعيل صادق بك . وثيقة بدون رقم في
٧ شعبان سنة ١٢٨٢ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦ في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٦٥ .

(٤) Aff. Etrang. Corr. Polit & Marie au Ministre No. 212.
Djeddah 24 Oct 1865.

(٥) دفتر ٢٢ عابدين (بند متفرقات) من إسماعيل باشا إلى محمد باشا ابن عائض
أمير عسير . وثيقة بدون رقم م ٩٤ في ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٢ (يناير سنة ١٨٦٦) .

ثورة عسير تبين لنا أن والى مصر لم يُولى السياسة العربية الخالصة اهتماماً كبيراً ، حتى لا يصطدم بالباب العالى وبالدول الأوربية كما حدث أيام محمد على . بل إن سياسة مصر فى ذلك الوقت قد اتخذت وجهة أفريقية ، ولو أن توسع مصر على الساحل الغربى للبحر الأحمر قد أدخل فى حوزتها مراكز عربية تجارية هامة مثل هرر وسواكن ومصوع وغيرها .

وإذا كانت سياسة مصر العربية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قد وجدت معارضة من قبل الحكومة الإنجليزية ، فإن سياسة مصر الأفريقية أيضاً لم تقابل من إنجلترا بعين الارتياح وخصوصاً عندما بدأ النفوذ المصرى يتقدم على الساحل الصومالى نحو الجنوب . وظلت إنجلترا تتحين الفرص للقضاء على امبراطورية مصر الأفريقية ، كما قضت على امبراطوريتها الغربية من قبل . وقد واثتها الفرصة ، عام ١٨٨٢ حيث تمكنت من احتلال مصر ، ثم ارغافها على الانسحاب من السودان بعد ذلك بسنوات قلائل .

محمد محمود السروحي